

غير أن هذا لا يقلل إطلاقاً من خطورة وأهمية السبق الفكري الذي حققه ابن خلدون باكتشافه لدور الرابطة القومية في التاريخ بعامه، ودورها الحيوي في نشر الرسائل الدينية بخاصة، من خلال طرحه لمفهوم العصبية كمحرك تاريخي. والعصبية، إذا تجاوزنا مفهومها الجاهلي، هي تعبير لغوي صريح يتناسب وصرحة عالم التاريخ والاجتماع في وصفه الطبائع البشرية الواقعية، حيث يكون التعصب، أي الحماسة القوية والولاء الشديد، للرابطة الجامعة بين الوحدات الاجتماعية من قبائل وشعوب وأمم، وقد كان ابن خلدون دائماً ذلك العالم الاجتماعي الواقعي الذي يسمي الأشياء بأسمائها دون غضاضة.

### العصبية هي الرابطة القومية

ونحن لو تتبعنا إشارات ابن خلدون إلى مفهوم «العصبية» في مختلف المواضيع بمقدمته لما خامرنا الشك في أنه يتحدث عن الرابطة القومية بمعناها الحديث الذي ينسبونه إلى علماء أوروبا وحدهم، ويتحدث عنه بعض مفكرينا على أنه من الأفكار المستوردة المرفوضة!

إن ابن خلدون لم يكن يتحدث عن عصبية عشائرية أو قبلية فحسب وإنما -أيضاً- عن تطور هذا المفهوم وارتقائه إلى أن تحرر من رابطة النسب والقرابة بالدم، وأضحى ولاء شعوبها لمجموعة أكبر، تضم مجمل تلك القبائل والعشائر التي تشكل أمة واحدة.

وهو كعالم اجتماع واقعي يرى أن هذه الصلة بدأت في الأصل كصلة رحم وصلة نسب دموي طبيعي، وهو يقرر منذ بداية شرحه لمفهومه في العصبية إن «صلة الرحم طبيعي في البشر، وإن هذا هو منشأ تلك العاطفة الجماعية التعاونية التي تلمسها بين أفراد الأسرة ثم العشيرة والقبيلة، وإن نزعة التعاطف الجماعية هذه: «نزعة طبيعية في البشر منذ كانوا..... (أي لها - في نظر ابن خلدون على الأقل - ليست اختراعاً أوروبياً.. وليست بدعة من بدع الحضارة الحديثة!).

ويقرر ابن خلدون أن هذا النسب السلالي أو الدموي لا يبقى على حاله من النقاء وعدم الاختلاط، وذلك بسبب التزاوج والتصاهر والتفاعل بين العناصر